عن الحقبة الغوغولية في الادب الروسي

نيقولاي تشرنيشفسكي

حين نحاول بصدد اصدار احكام ادبية ، فان علينا ان نصع نصب اعيننا مبدأين اساسيين : احدهما يهم علاقات الادب بالمجتمع ومساهمته ، ويهتم الثاني الحالة الراهنة لادبنا والشروط التي يتوقف عليها نموه . لقد جعل بيلينسكي من هذين المبدأين اساسين جوهريين للنقد الروسي ، وقد عرضهما بكل قوة جدله وطبقهما باستمرار على المهمة التي كان نجاحها يتوقف ـ في الجزء الاكبر منه ـ على النقيد بهما بالضبط، ومنذ زمن بيلينسكي الى الآن لم يحصل عندنا ذلك التقدم الذي تبلغ أهميته حدا تصبح معه أفكار بيلينسكي متجاوزة ، وان اولئك الذين تشغلهم الحقيقة لا زالوا يتشبثون اليوم ، ضرورة ، بالتصورات التي كان ممثلا لها في نقدنا .

ان الاتجاهات التي توجد في صلة وثيقة مع حاجيات المجتمع ، في كل مجالات النشاط البشري ، هي وحدها التي تستطيع الوصول الى درجة مرموقة من التطور . وان الشيء الذي لا يضرب بجذوره في الحياة يظل شاحبا وواهنا، لا يملك أية دلالة تاريخية ، ولا يمارس ادنى تأثير على المجتمع . وكلنا يعترف بهذه الحقيقة حين يتعلق الامر باتجاهات ووقائع تهم المجال المادي للحياة العلمية والاجتماعية . والامر ذاته يمكن قوله بالنسبة للرسم والنحت والهندسة المعمارية ، وذلك لان كل شخص ، مهما تواضعت خبرته ، لا يستطيع رفض الفكرة القائلة بأن كل فن من هذه الفنون لم يبلغ قمة تطوره الا في علاقة وطيدة مع حاجات العصر العامة . لقد انتشر النحت عند الاغريق لانه كان تعبيرا عن الملمح المهيمن في حياتهم ، تعبيرا عن عبادتهم المحمومة لجمال أشكال الجسم البشري . ولم يبدع المعماري القوطي تلك الصروح المدهشة الا لانها سمحت بتجسيد طموحات العصر الوسيط . كما أن مدرسة الرسم الايطالية لم تنتج روائع الاعمال الا لانها كانت تعبر عن طموحات مجتمع ينتمي الى عصر وبلد معينين ، وتتطابق مع روح عصرها ، ومع انصهار العبادة الكلاسيكية للجسم البشري مع المطامح العلوية للعصر الوسيط .

اما الادب فقد كان سيشكل ، حقا ، استثناء شاذا لهذا القانون العام لو كان بمقدوره أن ينتج شيئا بارزا وهو ينفصل عن الحياة ، الا انه قد سبق واوضحنا في مقال سابق ان ذلك لم يتم . لماذا ، اذن ، لا زال هناك مدافعون عن النظرية المسماة بنظرية «الفن الخالص» (وهو فن مجهول ومستحيل) التي نطلب من الادب ان يهتم بالشكل وحده فقط ؟ ان مصدر ذلك يكمن اما في ان أنصار الفن الخالص المذكور لا يلحظون هم أنفسهم المعنى الحقيقي لطموحاتهم ، واما في انهم يريدون تضليل الآخرين بحديثهم عن هذا الفن الخالص الذي لا يعرفه احد ولا يرغب فيه قط احد ، بما في ذلك ممتدحوه ، ودون أن نقف عند التشدق الكلامي الذي يخفون به ، عن وعي او عن غير وعي، مطامحهم الحقيقية ، سنسعى لمعالجة الوقائع التي تكشف هذه المقاصد ، عن قرب ، والروح التي هيمنت على كتاباتهم وعلى الاعمال المصادق عليها من طرفهم ، الشيء الذي سيمكننا من رؤية انهم لا ينشغلون قط بفن خالص منفصل عن الحياة ، بل يريدون ، على العكس من ذلك ، اخضاع الادب لاتجاه واحد ، ذي مضمون «ارضي» محدد تمام التحديد ، وفعلا ، فهناك اناس لا يهتمون بالمصالح العمومية ، ولا يحسون بغير ملذاتهم وآلامهم الشخصية ، في استقلال عن المشاكل التاريخية التي يثيرها المجتمع . وان الحياة بالنسبة لهؤلاء الابيقوريين الرقيقين تظل محصورة في العالم الشعري لكل من اناكريون وهوراس : أي تظل حديثا مرحا مصحوبا بأطعمة لذيذة غير وفيرة ، وبالبهجة والنساء ، ــ انهم في غير حاجة الى شيء آخر . وليس للامزجة من هذا النوع الا ان تضجر من كل ما يخرج عن عالم الافكار الابيقورية ؛ انها تريد من الادب بدوره الاقتصار على المضمون الذي ينفرد به وجودهم . الا أنه لكي يخفوا تعصبهم وتشبثيتهم البالغة فانهم يتجنبون التعبير صراحة عن رغبتهم . ويتحدثون عن فن خالص ، يزعمون أنه منفصل عن اهتمامات الحياة . ومع ذلك ، ألا يشكل الغذاء الجيد والنساء والحديث اللطيف عن النساء جزءا من وجودنا ، مثله في ذلك مثل الفقر والخطيئة ، مثل الجرائم والمطامح السامية ؟ ولو أن الشعر اقتصر على الاغاني الباخية والاحاديث الايروسية ، ألا يظل مع ذلك تعبيرا عن توجه معين في الحياة ، وتعبيرا عن أفكار محددة تمام التحديد ؟ انه سيقول لنا : «اشربوا واحبوا ، ابحثوا عن اللذة وسلوا عن أنفسكم ، دون التفكير في اي شيء آخر» ؛ سيدافع عن الابيقورية ، التي تشكل منظومة فلسفية مثلها في ذلك مثل الرواقية والافلاطونية ، المثالية أو المادية ؛ وسيكون بذلك مجرد داعية الى الابيقورية ، دون ان يكون قط تعبيرا عن فن خالص .

هذا اذن هو المآل الذي تنتهي اليه مسألة ما يسمى بالفن الخالص ؛ وان الامر هنا لا يدور حول مناقشة ما اذا كان على الادب ان يضع نفسه في خدمة الحياة ، وأن يبث أفكارا محددة (فهذا دور لا يمكن له ان يتخلى قط عنه،

وهو نابع من ذات ماهيته) ، وانما فقط حول معرفة ما اذا كان عليه أن ينحصر داخل الاتجاه الابيقوري ، متجاهلا لكل ما يبتعد عن المائدة الطيبة والنسمة والاحاديث الرهيفة بين ندماء يتوج الآس رؤوسهم . وليس الجواب صعبا على كل حال . فحصر الادب داخل أبيقورية رهيفة يقود الى تقليص حدوده بشكل مضحك وغير معقول ، كما يقود الى السقوط في أكثر انواع التعصب والتشبثية تطرفا . وسوف لن يكون الرد عليها بتشبثية أخرى مفيدا ولا مجديا : اذ أن نبذ انصار ما يسمى بالفن الخاص لكل أفكار واتجاهات الادب الاخرى لا ينبغي ان يثير ، بالمقابل ، نبذا للاتجاه الابيقوري ، وذلك رغم ان هذا الاخير يستحق الادانة والتنحية بسبب تفاهته وابتذاله ، أكثر من اي اتجاه آخر . وباستبعادنا لكل اتجاه وحيد الجانب فنحن نعترف بأن العقلية الابيقورية ، ما دامت مرجودة في الحياة ، لها الحق في التعبير عن نفسها ضمن الادب الذي عليه أن يشمل وجودنا برمته . الا أنه ينبغي الاعتراف ايضا بأن الابيقورية لا تستطيع ، بحق ، ان تلعب دورا مهما في غير حياة عدد ضئيل من الاشخاص المجبولين عليها بطبيعتهم ، والذين يتمتعون بشروط مادية ملائمة على نحو استثنائي ؛ والامر نفسه يمكن قوله بالنسبة للادب، فليس للاتجاه الابيقوري ان يروق سوى لعدد محدود من العاطلين السعداء ، أما أغلبية الناس فقد بدا لها ، وسيبدو دائما ، اتجاها تافها ، بل ومنفرا ، واذا توقفنا عند الزمن الحاضر فان علينا ملاحظة ان الظروف غير مواتية للابيقورية مطلقا ، وذلك لاننا نوجد الآن في عصر من الحركة (والصراع) ، لا في عصر من الركود العاطل ؛ وان الابيقورية التي هي اليوم عبارة عن انشغال أناني في العمق ، اذن غير شعري ، لتظهر في الادب الحاضر ، وبطبيعة الحال، موسومة بدكنة قاتلة . ان الشعر و الحياة ، هو الحركة (والصراع) والانفعال ، أما الابيقورية فلا نجدها اليوم سوى لدى الاشخاص الخاملين، الواقعين خارج التاريخ ، الشيء الذي يفسر سبب قلة عدد شعراء الابيقورية الحالية . واذا صح أن الصلة الوثيقة مع متطلبات العصر الطبيعية هي وحدها ما يبث قدرا من الطاقة في فعاليات الانسان ويتوجها بالنجاح فان الابيقورية لا تستطيع ابداع أي شيء ملفت للنظر حقا في شعر عصرنا ، ويكفي في ذلك أن ننظر الى مجمل الاعمال التي انتجها انصار هذا الاتجاه الادبي : انها اعمال متصنعة ، باردة ، كئيبة ومفخمة ، ومجردة تماما من اية قيمة فنية .

ان الادب يضع نفسه ، ضرورة ، في خدمة تيار معين من الافكار : وهو عاجز عن التملص من هذه الوظيفة ، التي تكمن في ذات طبيعته . وان أتباع نظرية الفن الخالص ، والذين يسعون الى جعل الفن شيئا بعيدا عن مشاغل هذا العالم ، لهم اما على خطا ، واما أنهم يضمرون مقاصدهم ؛ وقولهم بأن «على الفن أن يكون مستقلا عن الحياة» لم يخدمهم قط في غير اخفاء النضال الذي يخوضونه ضد اتجاهات الادب التي لا تروقهم ، وذلك للدفع بهذه الاخيرة

الى خدمة اتجاه آخر يروقهم اكثر . لقد سبق أن رأينا ما يبتغيه انصار نظرية الفن الخالص اليوم ، وانه لمن الصعب التفكير في ان مقاصدهم ستكون ذات تأثير ـ مهما ضؤل ـ على الادب ، بعد أن انكشف مدلولها الحقيقي للعيان . ان عصرنا لا يرغب قط في تكريس كل ما تبقى له لابيقورية ، كما لا يمكن للادب ان يخضع لهذا الاتجاه الضيق العقيم ، والغريب عن كل المطامح السوية لعصرنا .

(وليس بمستطاع الادب ، مثله في ذلك مثل اي نشاط أخلاقي وفكري جدير بهذا الاسم ، وبسبب ماهيته ذاتها ، الا أن يكون تعبيرا عن أفكار ومطامح عصره . ولا يتعلق الامر بغير تحديد الافكار التي عليه أن يخدمها : أهي الافكار التي لا ترتبط بحياة زماننا هذا بأدنى رباط من الاهمية فتنقل الى الادب الدائر حولها طابعا تافها لا نفع فيه ، أم هي تلك التي تحدد الحركة الرئيسية للعصر ؟ والجواب بالغ البساطة : ان تيارات الادب التي ولدت تحت تأثير الافكار السوية والنشيطة والتي تلبي حاجات العصر الملحة ، هي وحدها التي تستطيع تحقيق انطلاقة لامعة . ولكل عصر مهامه التاريخية ومطامحه الخاصة به . وان حياة ومجد عصرنا ليتشكلان من مطمحين متناظرين وملتحمين ببعضهما اشد الالتحام : النزعة الانسانية والانشغال بتحسين الوضع الانساني . وبهذين الفكرتين الاساسيتين انما ترتبط كل طموحات الانسان الاخرى في هذا العصر ومنهما انما تستمد قوتها ؛ مسألة الثقافة ، ومسألة النزعة الشعبية والقومية ، ومسألة التعليم . وان التصورات الحقوقية والسياسية لا تتحرك اليوم الا بفضل هاتين الفكرتين واستنادا اليهما ؛ وبصورة عامة فان هذه التصورات لا تهم الانسان المعاصر الا بقدر ما ارتبطت بالاتجاهات الانسانية وسعت الى تحسين الوضع البشري ، وان الامر هنا لا يشبه في شيء وضع بعض العلوم التي لا تكتسب أو تفقد قيمتها تبعا لصلاتها مع حاجات العصر المهيمنة، حقا ان باستطاعتنا ملاحظة نفس الظاهرة في ميدان الفنون : فاذا كانت حالة الرسم اليوم مرثية فان ذلك يرجع ، بالاساس ، الى عزلته عن المطامح الحالية . وقد عانت الفنون الاخرى من نفس المصير تقريبا ، وذلك لاسباب مماثلة . ومن بين كل الفنون ، يحتفظ الادب وحده بقوته وقيمته ، وذلك لانه هو المهيأ لانعاش المطامح الحية لعصرنا . وان كل الكتاب الذين يزدهر بهم الادب الاوروبي الحديث يستلهمون، فعلا ودون استثناء ، من الافكار التي تحرك هذا القرن . فأعمال بيرانجي ، جورج صاند ، هاينه ، ديكنز وتاكراي تحركها أفكار انسانية وانشغال بتحسين المصير الانساني . أما الكتاب الموهوبون الذين لم يتلفح نشاطهم بهذه المطامح فقد مكثوا في الظل أو حصلوا على شهرة أدنى من مستوى موهبتهم ، دون ان يبدعوا شيئا يستحق المجد حقا . وكل قارىء يرى اليوم ، مثلا ، أن ليس أدعى للعبث من الفكرة القائلة بأن شخصا ما يدعى الكسندر

دوما (الاب) كان يتوفر على موهبة ما . سيقول كل قارىء : «انه ثرثار تافه ، وروايته خرقاء وتفتقد ، في مجملها ، كل قيمة ، وخاصة من الناحية الجمالية». ومع ذلك فان الطبيعة كانت قد حبت هذا الكاتب بأكبر قدر من الموهبة ، لكن بما انه ظل مصما أذنيه عن مطامح عصره ، فانه لم ينتج سوى اعمال تافهة لا شأن لها.) (*)

اننا لا نستطيع ان ننتزع بالقوة الهاما من شيء لا يثير فينا اي صدى. واننا لن نفهم ولن نجسد الافكار النبيلة ، السوية والسمحة ، اعتمادا على الاثارة الاعتباطية لمخيلتنا ، وانما نفهمها ونجسدها استنادا الى الخصائص التي جبلت عليها طبيعتنا ، او الى تجربة الحياة أو الى التفكير والعلم . وثمة اناس عاجزون عن ايلاء اهتمام صادق ومخلص لما يحدثه التطور التاريخي حولهم : ان هؤلاء الكتاب يسعون عبثا لكي يلصقوا على أوجههم قناعا مشجيا لاناس تثيرهم المشاكل المعاصرة ؛ ومهما كان الوجه الذي يأخذونه فانهم لن يبدعوا قط شيئا بارزا حقا . وعلى العكس من ذلك فان على الكتاب الذين حبتهم الطبيعة ـ فوق الموهبة ـ بقلب حي ان يسعوا للاحتفاظ في ذواتهم بتلك المزاوجة الرائعة بين الموهبة والفكر ، التي تضفي على ملكاتهم كل قوة وكل قيمة ، وتبعث في أعمالهم الحياة والجمال . ينبغي عليهم الوعي بأن قلبهم السخي ، بأن روحهم المستنيرة تقودهم على الطريق الاوحد المستقيم نحو المجد ، وتحثهم على التحرك باتجاه التطور التاريخي ، وعلى خدمة الافكار الانسانية (humanitaire) والمساهمة في تحسين المصير البشري

ان هذا ينطبق على آداب كل البلدان ، من اسبانيا الى روسيا ومن السويد الى ايطاليا ، الا ان النشاط الادبي لكل شعب ، علاوة على الشروط العامة التي تنبع من طبيعة الموضوع ذاته ، هو نشاط يرتبط مباشرة بشروط خصوصية متوقفة على الظروف الخاصة بحياة ذلك الشعب .

(ففي البلدان التي بلغت الحياة الاجتماعية والفكرية فيها درجة عالية من التطور نجد ، ان صح القول ، تقسيما للعمل بين مختلف شعب النشاط الفكري ، لا نعرف منه عندنا (اي التقسيم) سوى شعبة واحدة هي الادب . لهذا فان أدبنا ، وبمعزل عن اية مقارنة مع الآداب الاجنبية ، يلعب في حياتنا الفكرية دورا أهم بكثير من دور الادب الفرنسي أو الالماني او الانجليزي في حياة بلاده ، وهو شيء يفسر واقع أن المهام والالتزامات المطروحة عليه هي أوفر عددا ، بما لا يقارن ، من المهام والالتزامات المطروحة على اي أدب آخر . انه يكاد يكشف كل حياة الشعب الفكرية ، واذن فعليه ان يهتم بالاشياء التي أضحت في بعض البلدان مجالا لاهتمام شعب اخرى من شعب النشاط الفكري . ان القصص القصيرة في المانيا ، مثلا ، توجه الى جمهور خاص لا

(*) الكلمات والجمل والفقرات المحصورة بين معقوفتين هي كلمات وجمل وفقرات حذفتها الرقابة القيصرية او حذفتها هيئة تحرير المجلة او الكاتب نفسه بسبب تلك الرقابة .

يقرأ سواها ويطلق عليه اسم «الجمهور الروائي» . في حين أن الامر مخالف لذلك عندنا : فالقصص تقرأ ايضا من طرف تلك الجمهرة من الناس التي لعلها لم تعد تهتم بها في المانيا قط ، وقد وجدت قوتا أفضل في المؤلفات العديدة المكرسة ، خاصة ، لحياة المجتمع المعاصر . ان الادب عندنا لا زال يحتفظ بتلك القيمة الموسوعية التي فقدها لدى الشعوب الاكثر استنارة . ففي حين أن الموضوعات التي عالجها ديكنز وغيره من الادباء في انجلترا هي موضوعات تصدى لها الفلاسفة والقانونيون والصحافيون والاقتصاديون ، الخ ، بدورهم، نجد عندنا أن لا احد يتكلم ، غير الكتاب ، عن الاشياء التي تكون موضوعا لكتاباتهم . لهذا فان ديكنز كان بمقدوره ، ككاتب ، أن لا يجد نفسه مرغما ، بصورة مباشرة ، على التعبير عن مطامح عصره . وذلك لان هذه الاخيرة قد تم التعبير عنها خارج الادب ؛ في حين أن كتابنا لم يكن بمستطاعهم التمتع بتبرير من هذا النوع ، والحال أنه اذا كان ديكنز وثاكراي قد قررا ، مع ذلك ، ضرورة تصدي الادب لكل المسائل التي تشغل المجتمع ؛ فلا يبقى لكتاب النثر والشعراء لدينا الا أن يستشعروا هذا الواجب ألف مرة ومرة . ان ليرمونتوف يتأسف على الزمان الذي كان الشعب فيه محتاجا الى شعراء في جميع قضايا الحياة المهمة ، فيقول :

قديما ، على الايقاع المهتز لكلماتك المنذرة ،
كان الرجال يذهبون الى الحرب .
كنت تخدم الجمع ، كما القدح في الوليمة ،
كما البخور في الصلوات .
كان شعرك يحلق فوق الجمع ، روحا الهية ، وكان
صدى أفكارك النبيلة الابية ،
يرن ، كأجراس الابراج الكنسية القديمة ،
وسط أفراح الشعب وأحزانه .

وهذا الزمان لم ينصرم بعد في روسيا . ولعل بمقدور انجلترا أن تتخلى عن ديكنز وعن ثاكراي ، الا أننا لا نعرف ما سيكونه مصير روسيا دون غوغول. فالشاعر والروائي عندنا لا يمكن تعويضهما أبدا . من كان بمقدوره ، سوى شاعر ، ان يقول لروسيا ما سمعته من بوشكين ؟ من كان بمستطاعه ، سوى روائي ، أن يودع روسيا ما علمه اياها غوغول ؟

ان هذه القيمة الموسوعية للادب الروسي هي التي ولدت وضعيته الاصيلة ، والشروط الخاصة التي تنظم نموه وتطوره .

لقد توزعت الحياة الفكرية في ألمانيا وانجلترا الى عدة شعب مستقل بعضها عن بعض ، وان النجاحات المقبلة لشعبة من هذه الشعب تتوقف ، اساسا ، على ظهور عبقريات جديدة ، والحالة المرثية التي يعرفها الادب في المانيا حاليا ، على سبيل المثال ، تعود فقط الى غياب كتاب مثل ديكنز وثاكراي ، وستدوم طويلا ما لم تنجب المانيا كتابا عباقرة . أما

الشروط التي يتوقف عليها النمو اللاحق للادب الروسي فهي مغايرة تماما . انها ترتبط بالجمهور . وبمقدور الادب ان يدفع بالقراء الى نشاط فكري متزايد، لكنه لا يستطيع ان يحل محلهم ولا ان يوجد دون دعمهم . ونحن لا نتحدث هنا عن المساعدة المادية (رغم أن وضع الادب الروسي لا يبدو باعثا على الرضى في هذا المجال : ففي خمس عشرة سنة لم تظهر لاعمال بوشكين سوى طبعتين ، لا يتجاوز مجموع نسخها عشرة آلاف) بل عن الدعم المعنوي ، ذي الاهمية الفائقة والذي لا يزال ، لسوء الحظ ، بالغ الضعف ، ان لم نقل تافها. فحين ظهرت ابيات من الشعر على صفحات مجلاتنا ، شرع الجمهور في قراءتها، معتبرا المجلة التي لا تنشرها مجلة ناقصة ، لكن ، ما أن توقفت تلك الابيات عن الظهور ؟ ان القراء المعاصرين يهتمون قبل كل شيء بالقصص الروسية ظهوره حتى يجد القراء ان لا قيمة للمجلة بدونه . ان الكتاب ينشرون اليوم روايات عن حياة الشعب ، ويحكم الجمهور على هذا الاتجاه بأنه عظيم المنفعة حسن جدا . لكن ، ماذا سيقول الجمهور لو ان هذا النوع من الروايات توقف عن الظهور ؟ ان القراء المعاصرين يهتمون قبل كل شيء بالقصص الروسية القصيرة . وان روايات ثاكراي الرائعة لتقرأ بقدر من النهم أقل من ذاك الذي نقرأ به القصص الروسية القصيرة الرديئة جدا ، وحين تظهر قصة ناجحة حقا ، فان حماسة القراء لا تعرف حدا قط ، لكن ، ماذا سيقول جمهورنا ، في رأيكم ، لو ان القصص الروسية القصيرة توقفت كتابتها فجأة ؟ .

(انه سيتأسف لها في دخيلته ، الا أنه سوف لن يرفع صوته بشيء ، فعلا ، أليس بمقدورنا ان نعيش دون قصص قصيرة ، بل ودون أدب ؟ لم لا يكون الامر على النحو ذاته بالنسبة للخبز ؟

ان هذا وضع لا ينبغي أن يدوم . فالتواضع والرصانة صفتان حسنتان طبعا . الا أن الافراط فيهما ضار دوما ، كما ان تواضع الجمهور المبالغ فيه تواضع مشؤوم على الادب . ان الجمهور يقول : « اذا أعطيتمونا شيئا فنحن سعداء وممتنون ، أما اذا لم تعطونا شيئا ، فماذا بمقدورنا أن نفعل ؟ » . كيف يطرح هذا التساؤل الاخير : « أن نفعل » ؟ .. ان على المرء أن يطالب وللجمهور القدرة على أن يصير قوى التأثير في الادب .. كما يمكن للادب ن يلبي رغبة الجمهور . الا انه ينبغي التعبير أولا عن رغباتنا ، والا فكيف نعرف هذه الرغبات من طرف المقصودين بها ؟ ان الشخص الصامت يعتبر ، من طرف الآخرين ، شخصا لا يريد شيئا . ان علينا التعبير عن رغباتنا بقوة، وبالحاح ، لكي تتم تلبيتها ؛ اما اذا طرحناها بصوت خافت وخجل ، فمن سيوليها اهتماما ما ؟ وحين لا يبلغ الادب مداه الحقيقي أو حين يتهرب من مهمته فان الخطأ يعود دائما الى الجمهور ، واليه وحده . وليس للمجتمع الحق في التخلص من مسؤوليته تجاه العيوب التي يعاني منها . ألا يكفيه اظهار عزيمة صلبة وعنيدة لكي يطرح بعيدا كل النقائص ؟ لا تقولوا ان المواهب

قد انعدمت ، فهي موجودة ، لكن ماذا بمقدورها ان تعمل دون الدعم المعنوي الجمهور ؟ ولو اتفق وخطر لكم ان الادب في حاجة الى مواهب أوفر عددا واكثر التماعا ، فان هذه ستظهر لكم بقدر ما ترغبون . الا نعلم ان العباقرة لم يعدموا قط ــ مع ندرتهم ــ مجالا مفتوحا لنشاطهم ؟ ولا تقولوا ، ايضا ، ان النقد يؤدي وظيفته على نحو سيء ، وذلك لانك أنت ، جمهورنا ، من يتحمل مسؤولية ذلك . ان على النقد أن يستند الى القراء ، في الواقع ، وأن يتوقف كلية على صلابة متطلباتهم ، واذا لم تتطلبوا من النقد ، وبالحاح ، أن يؤدي وظيفته على وجهها الصحيح ، فمن أين تأتون بحقكم في مطالبته بشيء ما ؟

ولكي يندفع الادب ، بصورة لا رجعة فيها ، الى الامام ، فان على الجمهور ان يفي بحقوقه تجاهه . وما لم يتم ذلك ، فليس لكل نجاحات الادب الا أن تكون طارئة ومؤقتة) .

وليس بمقدورنا قط أن نلوم جمهورنا على عدم اهتمامه بمصير الادب ، وعلى امتلاكه لاذواق ناقص نموها . وعلى العكس من ذلك فان الحالة الفريدة لادبنا من حيث هو الفرع الاكثر حيوية من نشاطنا الروحي ، علاوة على تكوين جمهورنا ــ جمهور الناس المتعلمين الذين لا يهتمون ، في أمم أخرى ، الا قليلا بالادب والشعر ــ ؛ يجعلان الادب الروسي أدبا يثير من التحمس المحتدم وسط متعلمي الشعب قدرا أكبر من ذاك الذي تثيره آداب بلدان العالم الاخرى في متعلميها ، وليس ثمة ، دون شك ، جمهور يحكم على الاعمال الادبية بنفس دقة وذكاء الجمهور الروسي . ان الانجليز لم يفتخروا ببايرون نفسه ولم يحبوه بذات الدرجة التي أحب بها الشعب الروسي بوشكين وافتخر به . ولم يكن نشر أعمال بايرون ، قط ، مسألة وطنية مثلما كان عليه الحال بالنسبة لنا مؤخرا حيث نشرت أعمال بوشكين وغوغول . ان هذه الوقائع تظهر اهتمام تراثنا الحي بالادب ، أما سلامة أذواقهم فقد اثبتت في مئات المناسبات ، بل وحتى دون ان نتحدث عن تثمين جمهورنا للكتاب الروس ، وهو تثمين صحيح في جملته ، يكفي النظر الى الذكاء البالغ الذي يحكم به هذا الجمهور على اعمال الكتاب الاجانب . ان الفرنسيين ما زالوا الى اليوم يعجبون بفكتور هيغو وبلامارتين ؛ لكن ، من منا يقاسمهم هذا الخطأ ؟ وما زال الانجليز يضعون بولويرليتن في نفس مرتبة ديكنز وثاكراي ، لكن ، من منا لا يلحظ ذلك الاختلاف البين بين هؤلاء الكتاب ؟ وليس لنا أن نتباهى بهذا التفوق: فمصدره يكمن فقط في ان المسائل الادبية تشتغل بصورة ــ تكاد تكون مطلقة ــ ذلك القسم من المجتمع الذي يمتنع ، في انجلترا أو فرنسا ، عن ايلاء اهتمام ما لهذه « السفاسف » . وكيفما كان الامر ، فلا شك ان جمهورنا الحالي يمتلك خاصيتين ثمينتين الى الحد الاقصى بالنسبة لتطور الادب وهما : اهتمام متحمس بنتاجات الكتاب ، وأحكام بالغة الصواب عليها . الا ان هذا الجمهور

يفتقر الى شيء واحد : وهو الوعي (بحقوقه على الادب ، الشيء الذى يتوقف عليه نجاح هذا الفن بأكمله في نهاية الشوط . فالجمهور يطير فرحا حين يكون الادب بصحة جيدة ، أما حين تسوء هذه الاخيرة ، فان الجمهور لا يملك سوى الصمت .

في السن الذي بلغته ، ليس جيدا
أن يمتلك المرء رأيه الخاص .

لكن عفوا ، (ألا يعود تاريخنا) (*) الى مائة وخمسين سنة ، تبعا للمجبين باصلاح بطرس الاكبر ، والى قرابة الالفي سنة بالنسبة لدعاة السلافية ؟ فهل يظل علينا أن نستمر في التظاهر بالتواضع ؟

وحين يترك الجمهور الادب دون دعم معنوي ، خاضعا لمشيئة الحوادث المحتملة ، فانه يفقد الحق في الاندهاش من تقلباته . ان على الرأي العام أن يوجه الادب وان يطلب منه ، بكل حزم ، التعبير عن مصالحه ، الا ان الرأي العام يحتفظ بصمته أو ، في احسن الاحوال ، يهمهم بالفاظ يتعذر فهمها : أليس طبيعيا اذن ان الادب ، وقد فقد دعامته الراسخة ، يظل متعلقا بالصدفة المتقلبة ويعاني من تأثير كل أنواع الآراء المسبقة ؟ ان جمهورنا يكاد يجهل كل شيء عن « كواليس » (« أسرار ») أدبنا ، في حين ان وضعيته الحالية تجعله احرج ما يكون الى الرحمة والشفقة . ونحن لا نتحدث هنا عن دسائس الكبرياء ولا عن عمليات الثأر الدنيئة والتكتلات والمودات الشخصية ، التي نجدها في كل الانشطة البشرية والتي لا تقدر على غير تعظيم أو اذلال الاشخاص غير الموهوبين والمنتمين الى الدرجة الثانية ، الا أنها تظل دون تأثير على نشاط الموهوبين الحقيقيين الذين يعرفون كيف يرتفعون بأنفسهم فوق الخصومات الدنيئة ؛ وينبغي الاعتراف ، من جهة اخرى ، بأن هؤلاء الاخيرين معروفون بالقدر الكافي من الجمهور ، بل وبأنهم يشكلون « الكواليس » الادبية الوحيدة التي هو على علم بها . ومع ذلك فثمة علاقات وظروف أكثر أهمية ، لا يمتلك الجمهور ولو مجرد هاجس عنها ، تثقل كاهل الموهوبين دون استثناء ، وخاصة منهم الكتاب الاكثر بروزا ؛ ونحن لا نستطيع محاربة هذه الظواهر (ولا شيء أسهل من محاربتها) الا حين نواجهها بتأثير حي وفعال للرأي العام على الادب . ولكي يكون الجمهور فكرة عنها ، سوف نشير الى اثنين أو ثلاثة من ظواهر « الكواليس » هذه ، وهي ظواهر لا قيمة لها ، على وجه الاجمال ، بالمقارنة مع ظواهر أخرى .

هل يعرف جمهورنا ، مثلا ، أي مشاهير وأي اقطاب يسودون اليوم في عالم الادب ؟ ان القارىء سينفجر ضحكا لو أننا ذكرنا له أسماء يعرفها منذ زمن على انها لاشخاص تافهين وعديمي الموهبة . الا اننا سوف لن نذكر هذه الاسماء ، وذلك لان التحذلق الادبي قد دخل بما فيه الكفاية في عاداتنا الى درجة أضحى مستحيلا معها التفكير دون هلع في مجازفة من هذا النوع ؛

وليس ثمة شك في أن هذه الملاحظات العامة التي نتقدم بها في خجل ستعتبر عندنا تهورا مرعبا . ونكتفي بقول ان الجمهور يخطيء اذا ظن أن أكثر الاسماء احتراما من طرفه هي كذلك في عالم الادب ؛ كم عندنا من شعراء « عظام » ونثريين « بارزين » ونقاد « مسموع صوتهم » في الشعر والعروض والمقالات التي يستهزيء الجمهور منها أو تدفع به الى الذوم ! ومع ذلك فانهم يعاملون اولئك الذين يتمتعون باحترام الجمهور بمنتهى الاحتقار ، وينصت الاخيرون لنصائحهم ، يستحسنون أعمالهم ، كأنهم يعتبرون انفسهم رجالا صغارا بجانب كتابنا « العظام » . آه لو ان الجمهور يعرف أمام أي اقطاب يخر منبطحا عالم الادب !

ان الشاعر الموهوب يكتب قطعا والروائي الموهوب قصصا لا نجد فيها أثرا للروتين المبتذل ، والجمهور مفترن بهذه الاعمال ؛ لكن ، هل تعرفون رأي عالم (بفتح اللام) الادب ؟ ان كل أقطاب هذا العالم يدينون الاعمال المذكورة ، وهذا لا يتم في المجلات فقط ، فنحن قد تعلمنا ان نكون متواضعين وان ننشر المجاملات المكتوبة ، وانما يتم بصيغة شفوية : كم من المآخذ ، ومن الملاحظات الملأى بالحكمة ، ينبغي على الكاتب الذي جرؤ وكان أصيلا أن يسمعها ! لقد سبق أن اطلعنا القاريء في مقال سابق لنا على الحالة الغريبة جدا لذلك الناقد المشهور والشاعر من شعراء الزمن المنصرم الذي امتنع عن نشر قصة لغوغول في مجلته وكان يرفض التحدث عن « **الموفتش** » خشية أن تنخفض منزلته بسبب اعتبارات قامت على اكذوبة بمثل هذه السخافة . هذا هو نوع الآراء المتداولة في عالم الادب. وان الجمود ليهيمن على مختلف أرجائه. وتستطيعون التأكد من أنه اذا كان (الكتاب) البارزون حقا يتمتعون باحترام ما في هذا العالم، فليس ذلك بفضل أقطابنا، بل رغما عن رغباتهم ومعتقداتهم: والاصداء الغامضة والبعيدة للرأي العام هي **وحدها** التي تدفعهم الى تقديم تنازلات للمرهبة والاصالة ؛ والا فان السطحية والابتذال سيسودان الى أقصى حد في عالم الادب . أتعلمون ان هذا العالم لم يعترف بعد بغوغول ككاتب كبير؟ ان اولئك الكتاب سيمرغونه في الوحل، وهم مغتبطون، لو كان ذلك بمستطاعهم، ان الامداح التي تكتب اليوم على شرفه ليست سوى تنازل راغم للرأي العام.

قد يقول القاريء : « ان هذا يبدو غير ممكن التصديق » . وسيكون على حق تماما . وقد يضيف : « كم هي مرثية وضيعة الآراء الادبية » . وسيكون هذا فعلا مرثيا حتى وان لم نعرض سوى للاسباب الواردة أعلاه . الا أن هذه الاخيرة ليست شيئا بالمقارنة مع ما نصمت عنه ، مقادين بذلك جمهورنا في تواضعه . نعم ، أيها القاريء ، فبمقدور الوضعية الحالية لادبنا أن تثير شفقة اكثر الناس لا مبالاة .

فلا تتسرعوا اذن في ادانة الكاتب الروسي ؛ اذ لو أنكم على علم

بالشروط والظروف غير الملائمة التي تحيط به ، والتي عليه أن ينمي مرهبته فيها ، فستتدهشون لقوته لا لعجزه ؛ وبعيدا عن تأنيبه على خطواته الثقيلة والمترددة ، ستفاجأون من أنه لا زال بمقدوره المشي . لا تتسرعوا في مؤاخذته على أخطاء اعماله ، بل اتهموا انفسكم بأنفسكم في ذلك . انكم مسؤولون عن الوضعية المحزنة للادب الروسي : وهو لا زال ينتظر منكم ، عبثا ، دعما معنويا قويا . ان الادب لا يشتد عوده الا اذا أصبح بامكانه الاستناد الى الجمهور ، في حين أن جمهورنا يتخلى عنه ويتركه وحده أمام مصيره . فعليكم حكم ايها القراء ، يتوقف نمو الادب الروسي : عبروا عن عزيمتكم الصلبة في رؤيته ينمو ويتطور ، وعند ذلك فقط سيصبح متوفرا على امكانية حقيقية في النمو والتطور .

للتوسع في الموضوع ، يمكن الرجوع الى المصادر التالية :

1) ـ **بالفرنسية :**

مجموعة الاعمال النقدية المختارة الصادرة سنة 1976 عن دار التقدم بموسكو لكل من :
ـ ف. **بيبلينسكي** ، (مع مقدمة لـ : ف. كوليشوف) .
ـ ن. **تشرنيشفسكي** ، (مع مقدمة لـ : الكسندر ليبيديف)
ـ ن. **دوبروليوبوف** ، (مع مقدمة لـ : ف. جدانوف) .
ـ د. **بيساريف** ، (مع مقدمة لـ : ي. سوروكين)
وكذلك :
ـ ف. ا. **لينين** . **كتابات عن الادب والفن** ، دار التقدم ، موسكو ، 1969 . (وخاصة الصفحات : 32 ... 40)

2) ـ **بالعربية :**

ـ **جماعة من الاساتذة السوفييت** ، **موجز تاريخ الفلسفة** ، (ترجمة : توفيق ابراهيم سلوم ـ مراجعة : د. خضر زكريا) ، دار الجماهير العربية ، دمشق ، نوفمبر 1976 (الجزء 1 ، الفصل 10 ،ص ص : 489 ... 563) .

ـ **لجنة من العلماء والاكاديميين السوفياتيين تحت اشراف م. روزنتال و ب. يودين** ، **الموسوعة الفلسفية** ، (ترجمة : سمير كرم ـ مراجعة ج. طرابيشي و ص. ج. العظم ، دار الطليعة ، بيروت ، اكتوبر 1974 ، (وخاصة الصفحات : 80 ، 91 ، 113 ، 181) .

ـ **عدد من الفلاسفة السوفييت** ، **الجمال في تفسيره الماركسي** ، (ترجمة : يوسف حلاق ـ مراجعة اسماء صالح) ، وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، 1968 ، (انظر الفصل المعنون بـ : «الجمال عند الثوريين الديمقراطيين الروس» ـ ص ص : 97 ... 121) .

ـ د. **جليل جمال الدين** ، **بيلينسكي : مؤسس مدرسة النقد الديموقراطي الثوري الروسي**، (مقال منشور بمجلة «قضايا عربية»، عدد 10، فبراير 1975، بيروت، ص ص : 149 ... 157).

ـ ف. ا. **لينين** ، **في الادب والفن** ، وزارة الثقافة السورية ، دمشق 1972 ، في جزءين، (انظر خاصة : الجزء الاول ، ص ص : 241 ... 250) .

نقل النصوص الى العربية : مصطفى المسناوي